جهود المستشرقين في الطعن بالسنة النبوية

مهند محمد يحيى موسى باشا

أكاديمية الدراسات الإسلامية بجامعة ملايا

ماليزيا

mohannadbasha@live.com

المقدمة

الحمد للّه رب العالمين، وأفضل الصلاة والتسليم على رسولنا محمد الهادي الأمين، وعلى آله وأصحابه ومن سار على دربه إلى يوم الدين، وبعد:

فإن اللّه تعالى قد منَّ على عباده بأن أرسل لهم رسول الرحمة نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم، وأنزل عليه القرآن لينير لهم الدرب ويدلهم على النجاة، قال سبحانه وتعالى: {لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آيته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين (سورة آل عمران: ١٦٤)، فالكتاب هو القرآن العظيم، والحكمة هي السنَّة النبوية الثابتة عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وعلى آله وسلَّم.

وقد أمر الله تعالى عباده بالسمع والطاعة لنبينامحمد عليه الصلاة والسلام وأكد على أنها وحي منه سبحانه وتعالى يقول رب العزة: {وما ءاتكم الرسول فخذوه وما نهكم عنه فانتهوا} (سورة الحشر: ٧)، وقال جل وعلا: {وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى} (سورة النجم: ٣، ٤).

إذا السنَّة النبوية قسيمة القرآن تندرج معه في الوحي الإلهي، وهي تبينه وتوضحه، والأخذ بها سبب للاهتداء فكلما تمسك بها أكثر كان حظه من الهداية أتم وأكبر.

هذا وقد ظهرت قديماً وحديثاً في مراحل تاريخنا الإسلامي فرق وطوائف أنكرت السنة والاحتجاج بها، زعماً منهم أنه لا حاجة إليها، وأن في القرآن ما يغني عنها، و ذهب فريق آخر إلى أن الحجية في نوع منها دون غيره، وما كادت تلك الطوائف التي أنكرت السنة وطعنت فيها أن تنقرض، حتى ظهرت فئة من المستشرقين الذين لم يألوا جهداً في محاولة القضاء على الإسلام وهدم أصوله وأركانه فلم يجدوا أفضل من هذا الباب العظيم الذي إن شككوا في مصداقيته فإنهم سيهدمون الدين فشرعوا في هذا الدرب ومعهم أتباعهم وللأسف ممن يحسبون على المفكرين المسلمين سواء علموا أو لم يعلموا؛ لذلك تجد كتابات هذا الفريق من تلامذة المستشرقين حول الإسلام عموماً والحديث النبوي خصوصاً لا تقل عن كتابات المستشرقين في إثارة الشُبه والتشكيك في مصادر الشريعة الإسلامية.

لذا أحببت أن اشارك في هذا المؤتمر المبارك من خلال المحور الثاني، فيما يتعلق بالجهود المبذولة من المسشرقين للطعن في الحديث النبوي، وقد جعلت البحث من مقدمة وفصلين وخاتمة ثم ذيلته بفهارس للمراجع والمصادر على الشكل الآتي:

- مقدمة: أهمية الموضوع.
- الفصل الأول: السنة حجيتها، ومراحل تدوينها.
- ويحتوي مبحثين:
- المبحث الأول: التعريف بالسنة وحجيتها.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف السنة لغةً واصطلاحاً.

المطلب الثاني: أنواع السنة.

المطلب الثالث: حجية السنة.

- المبحث الثاني: مراحل تدوين السنة.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المرحلة الأولى: تدوين السنة في عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

المطلب الثاني: المرحلة الثالثة: تدوين السنة في عهد الصحابة ضوان الله عليهم.

المطلب الثالث: المرحلة الثالثة: مرحلة الجمع والتدوين من ٧٠هـ إلى ١٢٠هـ.

- الفصل الثاني: شبهات المستشرقين حول السنة.

ويحتوي مبحثين:

المبحث الأول: التعريف بالإستشراق.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الإستشراق، نشأته، أهدافه.

المطلب الثاني: دوافع الإستشراق.

المطلب الثالث: صلة الإستشراق بالفكرالإسلامي وأثر تلك الصلة في إثارة الشبه حول السنة.

المبحث الثاني: مطاعن المستشرقين في السنة.

وفيه: تمهيد

ومطلب واحد: شبه المستشرقين والرد عليها.

الفصل الأول

السنة حجيتها ومراحل تدوينها

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: التعريف بالسنة وحجيتها:

وفيه ثلاث مطالب:

المطلب الأول: تعريف السنة لغة واصطلاحاً:

السنة في اللغة: مأخوذة من السنن، وهو الطريق والوجه والقصد[١]، وقد أطلقت على معان عدة من ذلك:

١- السيرة حسنة كانت أو سيئة.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده...))[٢]، وكل من ابتدأ أمرًا فعمل به أحد بعده، قيل هو الذي سنه.

---

[١] انظر: لسان العرب. محمد بن منظور. دار صادر. ط١. بيروت. ج١٣ – ص٢١٦.

[٢] أخرجه مسلم. باب أكثر على الصدقة رقم (١٠١٧) ٢/٧٠٤-٧٠٥.

٢- العادة والطريقة:

قال تعالى: {وما منع الناس أن يؤمنوا إذا جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا} (سورة الكهف: ٥٥)، يقول القرطبي: سنة الأولين: عادة الأولين في عذاب الإستئصال[٣].

السنة في الإصطلاح:

إذا نظرنا إلى علماء الدين نجد أن كل فئة أطلقت اصطلاحاً معيناً لتعريف السنة كلٌ حسب تخصصه، **فالسنة عند المحدثين:** ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خَلقية أو خُلقية أو سيرة، سواءً[٤] كان قبل البعثة أو بعدها، **والسنة عند الفقهاء:** ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يكن من باب الغرض ولا الواجب وبالتالي فإن فاعلها يثاب ولا يعاقب تاركها، مثل سنة الصلاة والصوم والحج والوضوء[٥].

ويتضح مما سبق أن اصطلاح المحدثين أوسع الإصطلاحات لتعريف السنة، وذلك لشموله حياة النبي عليه الصلاة والسلام.

المطلب الثاني: أنواع السنة:

أولاً: أنواع السنة :من تعريف المحدثين للسنة: نرى أنها على ثلاثة أنواع، وسألقي الضوء بإيجاز على كل نوع:

١- **السنة القولية:** هي أقوال النبي صلى الله عليه وسلم الصادرة عنه غير القرآن، مثاله: قل آمنت بالله فاستقم[١].

٢- **السنة الفعلية:** هي أفعال النبي، كأداء الصلوات، قال عليه الصلاة والسلام في حديث مالك بن الحويرث: ((صلوا كما رأيتموني أصلي))[٢]، وفعله في الحج يقول عليه الصلاة والسلام في حديث جابر بن عبدالله: ((لتأخذوا عني مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه))[٣].

٣- **السنة التقريرية:** هي إقراره صلى الله عليه وسلم أقوال صحابته وأفعالها كإقراره للعب الأحباش بالحراب في المسجد أيام الأعياد، تقول عائشة رضي الله عنها: ((رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد حتى أكون أنا الذي أسام))[٤].

---

[٣] الجامع لأحكام القرآن./ محمد بن أحمد القرطبي. دار الشعبي. القاهرة. ج١١. ص٥

[٤] انظر السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للدكتور مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي. ط٢ دمشق ص٧٤.

[٥] انظر: إرشاد الفحول ، محمد علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت،ط١، تحقيق: محمد البدري.ج١ص٣٣.

[١] أخرجه مسلم في صحيحه من حديث سفيان بن عبدالله الثقفي. كتاب الإيمان (١) باب جامع أوصاف الإسلام (٣) برقم (٣٨) ٦٥/١.

[٢] أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الأذان (١٠) باب الأذان للمسافر (١٨) ١٥٥/١.

[٣] أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الحج (١٥) باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً (٥١) رقم (١٢٩٧) ٩٤٣/٢.

[٤] صحيح البخاري. كتاب النكاح (٧٦) ، باب نظر المرأة إلى الحبشة (١١٤) ١٥٩/٦٠

المطلب الثالث: حجية السنة:

تمهيد في بيان معنى حجية السنة:

مما لا شك فيه أن السنة النبوية هي المصدر الثاني من مصادر التشريع في الإسلام بعد القرآن الكريم، ولا يمكن لدين الله أن يكمل ولا للشريعة أن تتم إلا بالأخذ بالسنة جنباً إلى جنب مع كتاب الله تعالى، ولقد اتفق العلماء الذين يعتد بهم على حجية السنة، سواء منها ما كان على سبيل البيان أو على سبيل الاستقلال[٥]، وحجة السنة ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة.

- **فمن القرآن:**

– يقول الله سبحانه وتعالى: {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما} (سورة النساء: ٦٥)، يقول الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: ((يقسم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول في جميع الأمور. فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً أو ظاهراً))، ولهذا قال:{ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً}[١] (سورةالنساء: ٦٥).

- **ومن السنة النبوية:**

– ما رواه ابن ماجه بسنده إلى المقدام بن معد يكرم الكندي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((يوشك الرجل متكئاً على أريكته يحدث من حديثي فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله عز وجل فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه. ألا وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما حرم الله[٢]، يقول الدكتور محمد أبو شهبه معلقاً على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ((وقد دل الحديث على معجزة للنبي عليه الصلاة والسلام فقد ظهرت فئة من القديم والحديث تدعو إلى هذه الدعوة الخبيثة وهي الاكتفاء بالقرآن عن الأحاديث وغرضهم هدم نصف الدين أو أن شئت فقل: تفويض الدين كله، لأنه إذا أهملت الأحاديث والسنن فسيؤدي ذلك ولا ريب إلى استعجام كثير من القرآن على الأمة وعدم معرفة المراد منه، وإذا أهملت الأحاديث واستعجم القرآن فقل على الإسلام العفاء[٣].

- **وأما الإجماع:**

فقد أجمع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم على الاحتجاج بالسنن والأحاديث والعمل بها ولو لم يكن لها أصل على الخصوص في القرآن؛ إذ فهم الصحابة استناد السنة إلى القرآن من قوله تعالى: {وما ءاتكم الرسول فخذوه وما نهكم عنه فانتهوا} (سورة الحشر: ٧)، وروى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله

---

[٥] مثال: كالجمع بين المرأة وعمتها. والأذان. والسواك وغيرها الكثير.

[١] تفسير القرآن العظيم. لإسماعيل القرشي الدمشقي ،مطبعة دار المعرفة ١٩٨٣م، بيروت ٥٢٠/١

[٢] سنن ابن ماجه، المقدمة، باب تعظيم حديث رسول الله (٢)، برقم (٢) وأخرج أبو داود نحوه من حديث المقدام برقم (٤٦٠٤) وأبي رافع برقم (٤٦٠٥). كتاب السنة، باب في لزوم السنة ٢٠٠/٤.

[٣] دفاع عن السنة: لمحمد أبو شهبة، ص١٥

عنه قال: ((لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله فقالت أم يعقوب : ما هذا ؟ فقال عبدالله: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ومن كتاب الله قالت والله لقد قرآت ما بين اللوحيين فما وجدته فقال: والله لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه، قال الله تعالى: {وما ءاتكم الرسول فخذوه وما نهكم عنه فانتهوا}[٤].

المبحث الثاني: تدوين السنة: وفيه ثلاثة مطالب.

ابتدأت الأمة الإسلامية بالعناية بالسنة النبوية منذ وجود الرسول صلى الله عليه وسلم، فلقد كان صلى الله عليه وسلم يحث أصحابه على ذلك بقوله: ((نضر الله عبداً سمع مقالتي فحفظها، ووعاها، وأداها، فرب حامل فقه غير فقيه وحامل فقه إلى من هو أفقه منه))[٥].

إلا إنه اشتهر من أهل العلم من ذهب إلى أن السنة النبوية لم تكتب ولم تدون إلا في عهد الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه، وقالوا أنها لم تدون في عهد قبله لأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن كتابتها كما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم: ((لا تكتبوا عني ومن كتب غير القرآن فليمحه وحدثوا عني ولا حرج ومن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار))[١]، ولقد أعجبني كثيراً السرد الذي قام به الدكتور حاكم المطيري في سرده لمجموعة من الظروف التي لا بد من الإشارة إليها في أثناء عرض هذا المبحث المهم[٢]، وسأشير هنا إلى أهم هذه الظروف بإضاءات سريعة.

١- إن العرب أمة أمية لا تعرف العلوم التي اشتغل بها غيرها عن الأمم. لذلك برعوا في فن (البيان) وعلم اللسان شعراً ونثراً، مما ساعدهم على التعبير والحفظ بأوجز عبارة وأوضح لفظ، وبهذا كانوا مهيئين لتلقي القرآن والسنة والتشريعات التي جاء بها الرسول عليه الصلاة والسلام والعناية بحفظها وفهمها.

٢- ولأن العرب أمة أمية صار الحفظ والاعتماد على الذاكرة الوسيلة الرئيسية في حفظ تراثهم الأدبي.

٣- كان عليه الصلاة والسلام إذا تكلم أوجز وأعاد الكلام ثلاث مرات حتى يحفظ أصحابه عنه، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: ((كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه))[٣].

٤- حرص الصحابة على حضور مجالس النبي صلى الله عليه وسلم، وكانوا إذا غاب أحدهم عن مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم سأل من حضر من الصحابة الآخرين كما في قصة عمر مع جاره في تناوبهما على حضور مجلس النبي[٤].

---

[٤] أخرجه البخاري. باب : وما أتاكم الرسول فخذوه. رقم (٤٦٠٤) ج٤ – ص١٨٥٣

[٥] سنن ابن ماجه رقم (٢٣٦) ج١/ ص٨٦

[١] صحيح مسلم . باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العِلم رقم (٣٠٠٤) . ج٤ / ص٢٢٩٨

[٢] انظر: تاريخ تدوين السنة وشبهات المستشرقين. د. حاكم عبيسان المطيري. مكتبة الكويت. ط١،ص١٢-١٣

[٣] البخاري: باب من أعاد الحديث ثلاثاً ليُفهم عنه. رقم (٩٥). ج١ /ص٤٨

[٤] انظر تاريخ تدون السنة. المطيري. ص١٣

٥- كان عليه الصلاة والسلام يحفظ أصحابه كثيراً من السنة القولية تحفيظاً حرفياً كما فعل مع البراء بن عازب عندما علمه حديث النوم: قال البراء: فرددتها على النبي صلى الله عليه وسلم فلما بلغت ((اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت ورسولك...)) قال: ((لا ونبيك الذي أرسلت))[٥].

فإذا ما راعى الباحث كل هذه الظروف فإنه سوف يسهل عليه فهم هذه المحطة الهامة في التاريخ الإسلامي وهي مرحلة تدوين السنة، ونحن إذا تناولنا هذا الموضوع ((مراحل تدوين السنة)) فإنما الهدف هو الرد على المشككين من أعداء الإسلام الذين ظنوا أن هذه ثغرة يمكن استغلالها للطعن في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما هي أهم المراحل التي مرت بها السنة النبوية ؟

المطلب الأول: المرحلة الأولى: في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم:

وردت أحاديث كثيرة عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم تبلغ بمجموعها رتبة التواتر في إثبات وقوع الكتابة للحديث النبوي، وهذا الجزء الذي تم كتابته ينقسم إلى قسمين:

الأول: ما أمر الرسول عليه الصلاة السلام بكتابته من المعاهدات، والوثائق والرسائل، كالوثيقة التي كتبها عندما دخل المدينة، لتنظيم العلاقة بين المسلمين المهاجرين والأنصار من جهة والمسلمين واليهود من جهة أخرى[١].

- وهناك أيضا الرسائل والكتب التي أمر الرسول بكتابتها وفيها تفصيل دقيق لكثير من التشريعات الإقتصادية الجنائية، مثل:

أ- كتاب الصدقات وكان عليه ختم رسول الله، والذي يفصل فيه رسول الله مقادير الزكاة الواجبة في الأموال وكيف تجبى من أصحابها، كتبه رسول الله قبل وفاته، كان عند أبي بكر الصديق ثم صار عند عمر بن الخطاب[٢].

ب- في يوم فتح مكة أذن الرسول عليه الصلاة والسلام لرجل اسمه أبو شاه أن يكتب خطبة النبي صلى الله عليه وسلم[٣].

جـ- الصحيفة التي كانت عند علي بن أبي طالب كتبها بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم فيها كثير من التشريعات في مقادير الزكاة والجنايات وغيرها من الأحكام والسنن[٤].

فهذه الكتب والرسائل تمت في حياته صلى الله عليه وسلم وبأمر منه[٥].

---

[٥] البخاري. باب فضل من بات على الوضوء . رقم (٢٤٤) . ج١/ ص٩٧

[١] انظر السيرة النبوية: لابن هشام. ط١٩٣٧١. تحقيق: محمد محي الدين. دار الكتب العلمية. بيروت (٥٠١/١)

[٢] أخرجه البخاري. باب زكاة الغنم (١٤٤/٢ – ١٤٧)

[٣] انظر: سنن أبي داود. باب ولي العمد يرضى بالدية رقم (٤٥٠٥) ج١٧٢/٤

[٤] ذكرها البخاري في صحيحه باب كتابة العلم رقم (١٨٧٠)

[٥] انظر: تاريخ تدوين السنة د. حاكم المطيري. ص٣٥-٤٠

الثاني:ما أذن به الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه بالكتابة في حياته:

ومن هؤلاء:

١- عبدالله بن عمرو بن العاص وهو من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم الملازمين له وكان من كتاب الوحي، أستأذن الرسول أن يكتب أحاديثه فأذن له، يقول رضي الله عنه، قلت يا رسول الله: إني أسمع منك الشيء فأكتبه قال: نعم قلت: في الغضب والرضا؟ قال نعم، فإني لا أقول فيهما إلا حقاً[٦].

ب- أنس بن مالك الأنصاري خادم رسول الله وأخر من توفي من الصحابة في البصرة سنة ٩٣هـ كانت له صحيفة كتب فيها أحاديث رسول الله وكان يحدث الناس منها[٧].

ج- سعد بن عبادة الأنصاري، أخرج الترمذي في سننه عن أبي سعد بن عبادة ((وجدت في كتاب سعد: أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى باليمين الشاهد))[٦].

وبهذا ثبت أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا قد كتبوا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته، إضافة للحفظ في صدورهم، مثل القرآن الكريم الذي كان محفوظاً في الصدور ومكتوباً على الجلود والرقاع وما تناولته أيد الصحابة.

المطلب الثاني: المرحلة الثانية في عهد الصحابة:

لما انتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى قام الصحابة رضوان الله عليهم بأدب الاسماع عنه خير قيام، ونقلوا للأمة [أفعاله وأقواله، وعباداته، ومغازيه، وفرحه، وغضبه، وأكله وشربه وملاعبته أهله] وهذا سوى ما حفظوا عنه من أحكام وما سألوه عن العبادات والحلال والحرام وتحاكموا إليه [١].

فالسنة في عهد الصحابة لم تدون بشكل رسمي لعدم الحاجة إلى ذلك فالحديث متوافر محفوظ بوجود الصحابة رضوان الله عليهم يروونه للتابعين ويتداولونه فيما بينهم.ومع ذلك وُجدت كتابات للحديث الشريف لم تتخذ طابعاً عاماً يتداولها المسلمون فيما بينهم منها:

١- كتاب أبي بكر الصديق رضي الله عنه لأنس بن مالك وكان عامله على البحرين يكتب فيه فرائض الصدقة على المسلمين. وقد نسخها أبو بكر من الكتاب الذي كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢].

٢- حديث عمرو بن سفيان أنه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: "قيدوا العلم بالكتاب"[٣].

٣- وكان البراء بن عازب رضي الله عنه يحدث ويكتب من حوله، عن عبدالله بن حنيش قال: ((رأيتهم عند البراء يكتبون على أيديهم بالقصب))[٤].

---

[٦] أخرجه أبو داود في سننه. رقم (٣٦٤٦)

[٧] أخرجه الدارمي في سننه. باب من رخص في كتابة العلم رقم(٤٩٢) ج١/١٣٧

[٦] سنن الترمذي. باب ما جاء في اليمين مع الشاهد. رقم(١٣٤٣).ج٣/٦٢٧

[١] انظر: السنة النبوية ومطاعن المبتدعة فيها، د. مكي الشامي، دار عمار،ط١، عمان، الأردن،ص١٨

[٢] صحيح البخاري. كتاب الصدقات. رقم (١٤٥٤)

[٣] سنن الدارمي.باب من رخص في كتابة العلم رقم(٤٩٧) ج١/١٣٨

[٤] سنن الدارمي.باب من رخص في كتابة العلم رقم(٥٠٣) ج١/١٣٩

المطلب الثالث: المرحلة الثالثة: مرحلة الجمع والتدوين من ٧٠هـ إلى ١٢٠هـ.

فقد بدأت هذه المر حلة في أواخر عهد الصحابة رضوان الله عليهم، إذ اتفقت آراؤهم على تدوين السنة، فأعطوا الأوامر لتلاميذهم من التابعين في الكتابة، وقد قام بمهمة جمع السنة وتدوينها في هذه المرحلة جهتان:

الأولى: جهود فردية، مثل:

- سعيد بن جبر يقول: أنه كان يكون مع ابن عباس فيسمع منه الحديث فيكتبه في واسط الرحل فإذا نزل نسخه[٥]، وكان مجاهد بن جبر يخرج كتبه لطلابه لينسخوها.

قال أبو يحيى الكناسي: ((كان مجاهد يصعد بي إلى غرفته فيخرج إليّ كتبه فأنسخ منها))[٦].

والثانية: جهود رسمية، وأقصد بها الأوامر التي صدرت من الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز إلى بعض العلماء بجمع الحديث، فبعد أن خشي رضي الله عنه أن يضيع شيء منها، أو أن يلتبس الحق بالباطل كتب رضي الله عنه إلى علماء الأمصار على رأس المئة الأولى للهجرة ((انظروا حديث رسول الله فاجمعوه))[١].

ونخلص إلى النتيجة التالية:

إن السنة لم يطل العهد بعدم تدوينها، وأن التدوين بدأ بصفة خاصة في عصر النبي، وقوي في عصر الصحابة وأوائل عصر التابعين، وبلغ الكمال في القرن الثالث الهجري خاتمة القرون الثلاثة المشهود لها بالخيرية، فكان أزهى عصور السنة وأسعدها بأئمة الحديث وتأليفهم الخالدة[٢].

الفصل الثاني:شبهات المستشرقين حول السنة.

وفيه مبحثان: المبحث الأول وفيه ثلاث مطالب:

المطلب الأول:

أولاً: تعريف الإستشراق:

هو: "دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأممه ولغاته وآدابه وعلومه وعاداته ومعتقداته"[٣]، وقد كان مقتصرًا في بداية ظهوره على دراسة الإسلام واللغة العربية ثم اتسع ليشمل دراسة الشرق كله[٤].

ثانياً:نشأة الاستشراق:

اختلف المحققون في مبدأ نشأته، فذهب بعضهم إلى أنه ابتدأ بدخول القوات العسكرية الاستعمارية أواخر القرن الثامن عشر بينما يرى البعض أن الاستشراق بدأ في القرن السابع عشر عندما بدأ الاهتمام بترجمة

---

[٥] سنن الدارمي.باب من رخص في كتابة العلم رقم(٤٩٩) ج١/١٣٨

[٦] تقيد العلم، للبغدادي ص: ١٠٢

[١] فتح الباري . شرح صحيح البخاري ٢٥٩/١

[٢] انظر: دفاع عن السنة. لمحمد أبو شهبه ص٢٤. أنظر:- معالم السنة النبوية لعبدالرحمن عتر ص١٥-٨٦ وتاريخ تدوين السنة. حاكم المطيري ص٤٢-٤٣ والسنة النبوية ومطاعن المبتدعة فيها. للدكتور مكي الشامي ص٥٠-٥٢ والسنة المفترى عليها، سالم البهنساوي ص٤٨-٦٣.

[٣] انظر: الاستشراق والفلسفة الإسلامية. محمد أبو سعدة. ط٥، جامعة حلوان- كلية الآداب ١٩٩٥م. ص١٠٥

[٤] الاستشراق والمسشرقون وجهة نظر. عدنان محمد وازن. ص١٥

بعض الكتب العربية وطباعتها، بينما ذهب بعض الباحثين إلى أبعد من ذلك حيث يرون أنه ابتدأ في بعض البلاد الأوربية في القرن الثالث عشر[٥].

ثالثاً: أهداف الاستشراق:

انطلق المستشرقون في دراستهم للإسلام من أمرين اثنين كان لهما بالغ الأثر في توجيه الدراسات الاستشراقية، فقد التقت المصالح المادية من الاستيلاء على ثروات الشرق وجعلها في خزائن الغرب مع مصالح الكنيسة في التنصير وسحق الإسلام انتقاماً لفشلهم الذريع في الحروب الصليبية[٦].

وعلى ذلك تمثلت أهم أهداف الاستشراق في النقاط الآتية:

١- تشويه الإسلام، وتحريف حقائقه والتشكيك فيه بإثارة الشبهات حول نبيه محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم، يقول الأستاذ سعيد الأعظمي: "إن الدوافع الاستشراقية نابعة من ذلك المقت الشديد الذي يضمره المستشرقون في كوامن أنفسهم وخباياها نحو الإسلام...وبذلك تتحقق نواياهم في هدم الإسلام وإضعاف الثقة بخلوده وإضعاف هيبة التاريخ الإسلامي والسيرة والمقدسات الإسلامية من نفوس المسلمين"[٧].

٢- العزف على وتر النعرات القبلية، والمذاهب الدينية، وأحياء اللهجات المحلية لتفريق وحدة المسلمين وزرع الخلافات فيما بينهم، ليسهل على الغرب التهام الشرق واستعماره، يقول الدكتور أحمد شلبي "...وعندما نجح الغرب في استعمار العالم الإسلامي لعب المستشرقون دوراً من وراء حجاب لإفساد المنهاج الإسلامية ولتشجيع النعرات الطائفية التي تفرق الكلمة وتكثر الانقسامات"[١].

٣- تعظيم القيم الغربية وإظهارها، والعمل على محاربة القيم الإسلامية النبيلة[٢].

المطلب الثاني: دوافع الاستشراق:

الدافع الديني:

يتفق جميع الباحثين على أن البداية في الاستشراق كانت من الكنيسة التي لعبت دوراً عظيماً في توجيه الاهتمام بتفوق الشرق على الغرب من خلال سقوطهم وفشلهم في الحروب الصليبية، ثم التحول بالكنيسة إلى الغزو الفكري، لذا لم يكن غريباً أن يكون رواد حركة الاستشراق القساوسة والرهبان ومن هؤلاء:

---

[٥] الإسلام والمستشرقون،نخبة من علماء المسلمين، مطبعة عالم المعرفة للنشر ، جدة، ط١ ، ص٢٧٦

[٦] للاستزادة في هذا الحديث. أرجع إلى الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم. الدكتور مصطفى السباعي. مطبعة المكتب الإسلامي. ط٢، ١٩٧٩. ص٢٥-٢٦وكتاب: المستشرقون والدراسات القرآنية.د. محمد حسين الصغير. دار المؤرخ العربي. ط١،ص١٣-١٨

[٧] هذا هو الاستشراق فما هي عدتنا نحوه. أ. سعيد الأعظمي. ضمن سلسلة الإسلام والمستشرقون.

[١] الاستشراق تاريخه وأهدافه ص٢٥. أحمد شلبي.

[٢] يقول المستشرق" غوستاف دوجا" من القرن الماضي ما نصه: ((... وعلى الحكومات الواعية بمصالحها الحقيقية أن تعرف كيف تشجع وتستخدم رجال العلم والإخلاص أولئك فالأمر يتعلق بإلحاق إضافات أخرى إلى محصول الحضارة المكتسبة وذلك باغتنام الإفادات التي من شأن الشعوب الشرقية أن تعطينا إياها. كما يتعلق بإمداد هذه الشعوب بنصيبها من فتوحاتنا الفكرية والأخلاقية والمادية)). انظر: الاستشراق في السيرة النبوية. عبدالله الأمين النعيم – المعهد العالمي للفكر الإسلامي ص٢٤.

١- بسكوال ت: (١٣٠٠)م الذي أوفد من قبل البابا في سفارات إلى العالم الإسلامي ومن خلال هذه السفارات جاءت أبحاثه ودراساته[٣].

٢- يوحنا الأشقوبي ت (١٤٥٦)م الذي وصل إلى قناعة تامة أنه لا يمكن القضاء على الإسلام عسكرياً وإنما عن طريق مهاجمته فكرياً[٤].

وأيضاً تركز معظم نتاج المستشرقين حول أساسيات العقيدة الإسلامية فالقرآن والسنة النبوية والفقه الإسلامي مواضيع أخذت الكثير من جهود المستشرقين، وكان تناولهم لهذه الموضوعات بهدف التشكيك والتشويه، وما ذاك إلا لهدم الدين الإسلامي، يشهد على ذلك ما قاله عدد من زعماء المشرفين، من هؤلاء:

- برنارد لوسي[٥]: قال: ((لا تزال آثار التعصب الديني الغربي ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين، ومستترة في الغالب وراء الحواشي المرصوصة في الأبحاث العلمية))[٦].

الدافع الاستعماري:

الاستشراق لم تكن بداياته بدوافع استعمارية، هذا أمرٌ مجمع عليه وإنما كان الدافع له كما جعلناه سابقاً الدافع الأول وهو الدافع الديني الذي يرمي للتشكيك بالإسلام وبالتالي هدمه في نفوس أتباعه، إضافة للدافع العلمي الذي سأذكره بعد قليل، إذاً الدافع الإستعماري لم يكن المقصود، لكن كيف تحول من دافع ديني وعلمي إلى استعماري؟ الحقيقة أنه لما أرادت الدول الأوربية استعمار العالم الشرقي احتاج هؤلاء إلى الكثير من المعلومات التي تساعدهم في تحقيق مبتغاهم، فوجدوا ضالتهم في المستشرقين الذين كانوا على علم بلغات وعادات ومذاهب الشرق، فاستعانوا بهم لاتمام هذه المهمة، يقول الأستاذ نجيب العقيقي:((فلما أرادت معظم دول الغرب عقد الصلات السياسية بدول الشرق والاغتراف من تراثه، الانتفاع بثرائه والتزاحم على استعماره، أحسنت كل دولة إلى مستشرقيها فضمهم ملوكها إلى حاشياتهم أمناء أسرار وتراجمة، وانتدبوهم للعمل في سلكي الجيش والدبلوماسية إلى بلدان الشرق، وولوهم كراسي اللغات الشرقية في كبرى الجامعات والمدارس الخاصة، ومنحوهم ألقاب الشرف وعضوية المجامع العلمية))[١]، ومن هنا برزت وطفت هذه العلاقة اللاأخلاقية بين الاستعمار والاستشراق[٢].

---

[٣] هو قسيس أسباني ولد في بلنسية ١٢٢٧م تولى عدد من المناصب الكنسية حتى أسره المسلمون في غرناطة وقضى بقية حياته ف السجن إلى أن توفي. خلف عدداً من الأعمال أهمها: (في الفرقة المحمدية). انظر: موسوعة المستشرقين، د. عبدالرحمن بدري. دار العلم للملايين، بيروت. ص٦٧.

[٤] يوحنا الأشقوبي: مستشرق أسباني ذو اتجاهات لا هويته كان له دور في مجمع بازل الكنسي أصبح كردنيالاً سنة ١٤٤٠. له كتاب: (طعن المسلمين بسيف الروح). انظر: موسوعة المستشرفين. د. بدوي. ص٢٦

[٥] برناردلويس: ولد سنة ١٩١٦م تخرج في جامعتي لندن وباريس وعن معبد بجامعة لندن. لعب دوراً سياسياً بارزاً بعد تعيينه في وزارة الخارجية البريطانية. له كتاب: (أصول الإسماعلين والإسماعلية).

انظر: المستشرقون نجيب العقيقي. ج٢ . ص٥٦١. دار المعارف – مصر ١٩٦٤م.

[٦] انظر: الاستشراق أهدافه ووسائله. د. محمد فتح الله الزيادي. ط٢. دار قتيبة . دمشق ص٢٦.

[١] انظر: المستشرفون . للعقيقي ص١١٤٩

الدافع العلمي:

لم تكن جميع دوافع المستشرفين من دراسة تاريخ وأدب وثقافة الشرق المراد منها ما أسلفنا؛ بل كان هناك مستشرقون تجردوا للعلم وبحثوا عنه، فكان دافعهم المعرفة، والنهل من حضارة الإسلام، يوضح هذا اهتمام عدد كبير من المستشرفين بجمع وتحقيق فهرسة التراث الإسلامي.

وأيضاً الدراسات المتجردة للإسلام والعربية التي خلت من كثير من السلبيات التي صاحبت الدراسات الاستشراقية، مثل:

- لورافيشيا فاغليري[٣].
- روجيه جارودي[٤].

ومن الجدير ذكره أن معركة كبيرة تدور رحاها بين علمائنا وأدبائنا وبين المستشرقين حول صحة هذا الغرض أو التشكيك فيه، وقد عرض لها الأستاذ نجيب العقيقي وناقش كثيراً من أبعادها، وأياً كان فالمفروض أن نكون حذرين عند تناولها لجهود المستشرقين فيما تناولوه في الدراسات القرآنية أو السنة النبوية، حتى لا ندع مجالاً لبذر الخطأ والتزييف في ديننا وحتى لا نقع في المطب كما وقع بعض من يحسبون على الفكر الإسلامي[٥].

المطلب الثالث: صلتهم بالفكر الإسلامية وأثر تلك الصلة في إثارة الشبه حول السنة:

قام الأستاذ الأمين الصادق حفظه الله في كتابه[١] بسرد سلس لصلة الغرب المسيحي بالشرق الإسلامي وكيف استطاعوا أن يصلوا إلى ركن ركين من أركان الإسلام الذي أن شكك فيه. شُكك بالدين كله، ألا وهو السنة النبوية الشريفة.

يعرض الباحث: أن مبدأ اتصال الغرب بالشرق كان اتصالاً عدائياً مسلحاً، وهو ما عُرف بـ(الحروب الصليبية) ولما كان القرن السادس عشر بدأ الاتصال يأخذ منعطفاً آخر وهو السيطرة على اقتصاد العرب والمسلمين، وبعد ذلك توج هذا الاتصال بالاستعمار الجديد في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. من خلال استغلال الثروات وأيضاً الطمس للثقافة الإسلامية والتشويه للدين ليتمكنوا من إخضاع الشرق إخضاعاً تاماً للسيطرة الغربية، إذا العلاقة موصولة، والصلة وثيقة بين الغرب والشرق، لكنها وهو المهم تستهدف الإسلام وبناءه الشامخ، وكون

---

[٢] للاستزادة والإطلاع على نماذج من التعاون بين المستعمر والاستشراق. انظر: الاستشراق أهدافه ووسائله، د. محمد فتح الله الزيادي ص٣٨-٤٤.

[٣] مستشرقة إيطالية مهتمة بالتاريخ الإسلامي واللغة العربية من مؤلفاتها: (دفاع عن الإسلام) و(قواعد العربية) انظر : المستشرقون: للعقيقي. ج١. ص٤٠٤

[٤] روجيه جارودي: مفكر فرنسي ولد سنة ١٩١٣م. اختير عضواً في الحزب الشيوعي. اعتقل سنة ١٩٤٠ وتعرف إلى الإسلام في السجن، وبعد إطلاعه على الأديان وقراءاته حولها دخل الإسلام سنة ١٩٨٢م. وألف كتباً من أهمها: (لماذا أسلمت) و(الإسلام دين المستقبل) للاستزادة حول هذا المفكر. انظر كتاب: روجيه جارودي والمشكلة الدينية. محمد الميلي، دار قتيبة، دمشق، ط١، ص٢٣

[٥] المستشرقون والدراسات القرآنية، د. محمد حسين الصغير. ص١٨

[١] انظر: موقف المدرسة العقلية في السنة النبوية ج١، ص٤٢٩ - ٤٣٤

السنة النبوية هي المصدر التشريعي الثاني بعد القرآن فإن التشكيك فيها وتشويهها له طريق مثمر في هدم الإسلام وبالتالي السيطرة على المسلمين والنيل منهم.

– أشهر المستشرفين الباحثين بعلم الحديث:

اعتنى المستشرقون بشتى أنواع العلوم التفسير والفقه واللغة العربة والحديث، وبما أن موضوع بحثنا عن الحديث ومحاولات المستشرقين للطعن فيه كان لزاماً أن أقوم بالإشارة إلى أشهر المشرقين الذين عنوا بالحديث في القرنين الماضيين ومن هؤلاء:

١– كريل: مستشرق ألماني، نشر الأجزاء الثلاثة الأولى من صحيح البخاري[٢]

٢– حولد تسيهر: مستشرق يهودي مجري، حاقد على الإسلام ونبيه الكريم محمد عليه الصلاة والسلام[٣]

٣– ليكونت: مستشرق فرنسي معاصر عني بدراسة الإمام ابن قتيبه ومصنفاته[٤]

٤– فوك: مستشترق ألماني من المهتمين بعلم الحديث[٥]

المبحث الثاني:مطاعن المستشرقين في السنة

لا بد لي قبل أن أسرد الشُبه التي آثارها منكروا حجية السنة وقبل أن أقوم بالرد عليها، ولا بد من توضيح أمر غاية في الأهمية، وهو: أن من يردد هذه العبارة "السنة ليست بحجة ونكتفي بما ورد في القرآن" أقول: الذي يقول ذلك تعتريه حالتان:

إما: ذكرها جاهلاً بأهمية وأثرالسنة ومنزلتها من الدين.

أو: عالماً بقدر السنة ومكانتها، وأراد بذلك هدم السنة ليصل بعد ذلك إلى هدم الدين.

فإن كان من الفئة الأولى فهو جاهل، مَرَّ على صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أمثالهم، فهؤلاء يُبصرون ويُنصحون ويُرشدون إلى مكانة السنة في التشريع، ومثالهم: الرجل الذي جاء إلى عمران بن حصين فسأله عن شيء فحدثه فقال الرجل: حدثوا عن كتاب الله ولا تحدثوا عن غيره! فقال له عمران إنك امرؤ أحمق أتجد في كتاب الله أن صلاة الظهر أربع لا يجهر فيها؟ وعدّ الصلوات، وعَدَّ الزكاة ونحوها ثم قال: أتجد هذا مفسراً في كتاب الله؟ إن كتاب الله أبهم هذا، وأن السنة تفسر ذلك[١].

---

[٢] كريل (١٨٢٥م– ١٩٠١م) المستشرقون للعقيقي، ٣٧٦٠/٢،

[٣] جولد تسيهر (١٨٥٠م – ١٩٢١م) : مستشرق يهودي حاقد على الإسلام وعلى نبيه محمد أفضل الصلاة والتسليم،درس الإسلام بهدف التشكيك والعمل على هدمه. عمل مأستاذا بجامعةبودابست، ثم رحل إلى بعض البلاد العربية.تعتبر أبحاثه المرجع الاول لغالب الباحثين الغربيين في مجال الدراسات الإسلامية. من أهم كتبه: " العقيدة والشريعة في الإسلام" و "مذاهب التفسير الإسلامي" انظر:الإعلام :لخير الدين زركلي، ط٣، بيروت، ج١، ص:٨٠

[٤] ليكونت. مستشترق فرنسي. نشركتاب : إصلاح الأغلاط في غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام. أنظر : العقيقي ٤٦٩/٢

[٥] فوك: (١٨٩٤– ؟) مستشرق ألماني، اهتم بعلم الحديث. من مؤلفاته: مكانة المحدثين في الإسلام – حديث البخاري أنظر: المستشرقون . للعقيقي، ٤٦٣/٢

[١] انظر: السنة النبوية ومطاعن المبتدعة فيها. د. مكي الشامي. ص١٢٥

أما إذا كان من الفريق الثاني المنكر لحجية السنة فإن العلماء قد نصوا على أن منكر حجية السنة زنديق كافر[٢]، وذلك لمخالفة نصوص القرآن الصريح، ومخالفة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام[٣]، ولخلاف إجماع الصحابة رضوان الله عليهم، ولأن صاحب القول يذهب بعيداً عن مقتضى الفهم السليم والعقل القويم.

لذا لم يكن من الغريب أن تجد اليوم مجموعة أطلقت على نفسها "مفكرون إسلاميون" وما هم إلا أُذناب للغرب نجح المتشرقون في التأثير بهم، فساروا على منهجهم حيال السنة النبوية، فأنكروا حجيتها، ولعله من الجدير بالذكر أن نذكر مجموعة منهم أمثال:

- **توفيق صدقي**:[٤] الذي دعا إلى ترك الحديث والاعتماد على القرآن وحده، ونشر مقالاً في مجلة المنار تحت عنوان: "الإسلام هو القرآن وحده".

- **أحمد أمين**[٥] سار على النهج نفسه متأثراً بما قاله المستشرقون ووضع كتابه: "فجر الإسلام" ليبين رأيه في هذا الموضوع.

- وأيضاً من هذه المدرسة **محمود أبو ريه**[٦] في كتابه "أضواء على السنة المحمدية".

هؤلاء كلهم دعو إلى عدم حجية السنة وأثاروا مجموعة من الشبهات أخذوها تماماً كما هي عن المستشرقين، وبالأخص الشبه التي أثارها المستشرق المجري جولد تسهير.

فما هي هذه الشُبه ؟ وما هي حججهم التي استندوا إليها:

المطلب الأول: شبه المستشرقين حول السنة والرد عليها:

الشبهة الأولى: أن القرآن الكريم هو المصدر الرئيس للتشريع وأن السنة النبوية ليست حجة وبالتالي ليست بمصدر مع وجود القرآن.

استدلوا على ذلك بقول الله تبارك وتعالى:

١ -{ما فرطنا في الكتاب من شيء} (سورة الأنعام: ٣٨).

٢ -وقوله تعالى: {ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء} (سورة النحل: ٨٩).

---

[٢] انظر: جامع بيان العلم وفضله. لأبي عمر يوسف ابن عبدالبر، المكتبة السلفية،ط٢، ج٢. ص١٩٠ والموافقات. للشاطبي ج٣. ص٣٧١

[٣] أرجع إلى الصفحة (٥-٦) من هذا المبحث.

[٤] هو الدكتور محمد توفيق صدقي. طبيب بمصلحة السجون بالقاهرة ، تأثر كثيراً بفكر المستشرقين كتب مقالات في مجلة المنار بعنوان: "الإسلام هو القرآن" مات سنة ١٩٢٠م ترجم له الشيخ محمد رشيد رضا في مجلة المنار ٢١/٤٨٣ وما بعدها.

[٥] هو أحمد أمين ابن الشيخ إبراهيم الطباخ، أديب وكاتب مصري، ولد بالقاهرة سنة ١٨٧٨، عمل مدرساً بمدرسة القضاء الشرعي، ثم قاضياً، ثم أستاذاً بالجامعة إلى أن صار عميداً، ساهم في إنشاء أكبر مجلتين في تاريخ الثقافة العربية هما "الرسالة" و"الثقافة" من أهم كتبه: فجر الإسلام – ضحى الإسلام.

[٦] محمود أبو ريه: من مواليد كفر المندرة بمحافظة الدقهلية بمصر ولد سنة ١٨٨٩م درس في المدارس المدنية والدينية، وتأثر بكتب المستشرقين ونقل عنهم آراؤهم الطاعنة في السنة النبوية، ولقد فضح مقاصده جلة من العلماء على رأسهم العلامة عبدالغني عبدالخالق ومصطفى السباعي ومحمد ابو شهبة عليهم رحمة الله، توفي أبو ريه سنة ١٩٧٠م.

فهاتان الآيتان تدلان على أن القرآن قد حوى كل شيء من أمور الدين وبينه تماماً بحيث لا تحتاج الأمة إلى شيء سواه في التشريع، ذلك أنها إن احتاجت إلى ما سواه كان القرآن غير مستوعب لكل أمور الدين كما أخبرنا سبحانه ولكان مفرطاً غر مبين، وإن لم تحتج الأمة، وهو ظاهر الآية وواضح الفهم فإنه لا حجة للسنة!

الرد على هذه الشبهة:

المشكل الذي أشكل عليهم هو فهمهم للكتاب بأنه هو القرآن إلا أن الذي يتلو الآية من أولها سيفهم أن المراد بهذه اللفظة (الكتاب) ليس القرآن وإنما اللوح المحفوظ، يقول الله تبارك وتعالى في أول الآية: {وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون} (سورة الأنعام: ٣٨)، فالآية واضحة في أن المخلوقات التي أوجدها الله تعالى على الأرض من إنسان وحيوان وطير أمرها كلها ابتداءً وانتهاءً راجع إلى الله تعالى: عمرها ورزقها وسعادتها، فهذه المخلوقات تتشابه في هذه النقاط الثلاث، وكل هذا مدون في اللوح المحفوظ، يقول الحافظ ابن كثير في تفسيره ((الجميع علمهم عند الله، فلا ينسى واحداً من جميعها من رزقه وتدبيره سواء كان بريا أو بحرياً))[1]، فالمثلية في هذه الآية ترشح هذا المعنى، ذلك أن القرآن لم ينظم للطير حياة كما نظمها للبشر وإنما الذي حوى كل شيء للطير والبشر هو اللوح المحفوظ[2]، وعلى هذا الفهم توضح أن المراد بالكتاب هو اللوح المحفوظ، وإذا سلمنا أن المراد بلفظ "الكتاب" في هذه الآية هو القرآن الكريم فإنه على العموم ومخصص بقوله تعالى: {وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون} (سورة النحل: ٦٤).

يدل على هذا أن الصلاة واجبة بنص القرآن، ولكن كم عددها؟ وكم عدد ركعاتها؟ وما هي الصلاة التي يجهر فيها؟ والصلوات التي يُسر فيها؟ وكذلك بقية الفرائض من حج وصوم وزكاة، أسئلة كثيرة تتعلق بهذه الفرائض التي فُرضت بنص القرآن فصلتها وأوضحتها السنة؛ لهذا لم يكن هناك بد من تخصيص العام، وعلى ذلك يكون المقصود من قوله تعالى (ما فرطنا في الكتاب من شيء) أي من القواعد الرئيسة التي تندرج تحتها الكثير من الجزئيات التي وضحتها السنة النبوية.

الشبهة الثانية:

ذهب البعض إلى عدم الاحتجاج بالسنة ذلك أنها غير موثوقة بزعمهم والسبب يعود إلى أنها لم تدون إلا في القرن الثاني الهجري واعتمد في كتابتها على ما حُفظ في الصدور، والذي حفظ وبقي قليل بسبب طول العهد للبدء في الكتابة، فالأغلب نُسي وبالتالي قالوا: لا نثق بالسنة، والأولى تركها وعدم الاحتجاج بها.

ويستدلون على ذلك:

١- بمجموعة من الأحاديث :

---

[1] انظر : تفسير ابن كثير. ج٢، ص١٣١

[2] انظر: السنة الإسلامية بين إثبات الفاهمين ورفض الجاهلين.د. رؤوف شلبي . ص٤٣-٤٤

أ- ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله قال: ((لا تكتبوا عني شيئاً إلا القرآن، فمن كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحه))[1].

ب- وكذلك ما رواه الأوزاعي قال: سمعت أبا كثير يقول: سمعت أبا هريرة يقول: ((لا نكتب ولا نكتب))[2].

٢- يستدل أيضاً: على ما ذكره المحدثون من أن الحديث لم يدون إلا في القرن الثاني من الهجرة، وأن أول من دونه هو الإمام الزهري بأمر من الخليفة عمر بن عبدالعزيز، وأن هذا مدعاة إلى نسيان كثير منه ومدعاة إلى الشك فيه.

الجواب على هذه الشبهة:

أولاً: إن كنتم قد ذكرتم أحاديث تثبت نهي النبي عليه أفضل الصلاة والسلام على كتابة الحديث فكذلك ثبت إذنه صلى الله عليه وسلم كتابة الحديث، وقد أشرت في مبحث سابق إلى ذكر هذه الأحاديث والآثار[3].

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال: لماذا نهى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكتب الحديث؟

- استنبط العلماء عللاً عدة لهذا النهي: هي:

١- مضاهاة القرآن الكريم. فالقرآن مكتوب متداول من الصحابة فخشي رسول الله أن يكون الحديث مصحفاً يقرأ ويتلى، لذلك تجد أن سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه لما أراد أن يجمع السنة خشي أن ينكب الناس عليها ويعرضوا عن القرآن، قال رضي الله عنه: ((إني كنت أردت أن أكتب السنن، وإني ذكرت أقواماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله تعالى، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبداً))[1].

٢- خشية اختلاط الحديث بالقرآن، وذلك أن القرآن الكريم لم يكتمل بعد وما زال ينزل والصحابة يكتبونه، فإذا ما ورد الأذن بالكتابة للحديث أيضاً أنشغل الناس بكتابته وخشي من عدم التفرقة بينه وبين الحديث.

التوفيق بين الرأيين:

ذهب فريق من العلماء للجمع بين الرأيين طالما أنه يستقيم الأمر على ذلك فقالوا:

١- أن أحاديث النهي منسوخة بأحاديث الأذن بالكتابة، وهذا ما يعرف بنسخ السنة بالسنة.

٢- أن النهي كان لمن يوثق بحفظه فهذا ليس له سبب يدعوه إلى الكتابة، أما من لا يوثق بحفظه، ويخاف النسيان فمسموح له، بل الأولى له أن يكتب الحديث.

يقول الدكتور عبدالرحمن عتر: ((ولعلنا نوجز التوفيق في هذه الأحاديث الشريفة: بأن النهي كان لعلة فإذا زالت هذه العلة كان الأذن بالكتابة فالخوف من التباس القرآن بالحديث والخوف من الأنكباب على الحديث كان هذا سبباً للمنع من الكتابة، فلما زالت هذه الأسباب عاد الأمر إلى السماح بكتابة الحديث))[2].

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه.باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم.رقم(٣٠٠٤)ج٤/٢٢٩٨ وأحمد في مسنده برقم(١١٥٥٣)ج٣/٥٦

[2] أخرجه الدارمي في سنده. باب من لم ير كتابة الحديث (١/١٢٢) والخطيب في تقييد العلم . ص٤١

[3] أرجع إلى مبحث : تاريخ تدوين السنة ص: ٨ من هذا البحث.

[1] انظر معالم السنة النبوية. ص٧٢

[2] معالم السنة النبوية: لعبدالرحمن عتر ص٧٦. والدفاع عن السنة لمحمد أبو شهبه ص٢٠.

ثانياً: أما ما ذكره المشككون من أن الحديث لم يدون إلا في القرن الثاني للهجرة، وبأنها فترة طويلة تستدعى النسيان.

فالجواب: في محورين:

الأول: أنه لابد أن يعلم الفرق بين مصطلحيين اثنين.

الأول: تقييد العلم.

الثاني: تدوين العلم.

فالتقييد معناه: كتابته، سواء أكان مفرقاً أو مجموعاً، مرتباً أو غير مرتب.

والتدوين معناه: جمع المتفرق في كتاب واحد.

وبالتالي عندما يذكر المحدثون بأن الزهري هو أول من دون الحديث بأمر عمر بن عبدالعزيز فإنهم يقيناً لا يقصدون أنه أول من كتب الحديث، وإنما القصد أنه أول من قام بجمع هذه المتفرقات التي كتبها الصحابة رضوان الله عليهم وغيرهم من التابعين في دفتر واحد هذا ما قصده المحدثون بأن التدوين ابتدأ في القرن الثاني من الهجرة وبذلك يبطل مزعمهم من أن السنة لم تكتب في القرن الأول.

الثاني: أن عدم الأمر بكتابتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينفي حجيتها كمصدر أساس للتشريع، ذلك أن مصدريتها غير متعلقة بالتدوين، وأما حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الذي تستدلون به على عدم إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكتابة ففيه نقطتان هامتان:

الأولى: أمره بالحديث عنه ولا حرج.

الثانية: نهيه عن الكتابة.

فنهيه صلى الله عليه وسلم عن الكتابة لا يفهم منه عدم حجية السنة! بل المفهوم هو الحجية وذلك لأنه أمر أصحابه بأن يحدثوا عنه، وإنما لم يرد في هذه المرحلة هذه الطريقة من الحفظ وهي الكتابة مخافة اللبس مع القرآن.

والرأي الراجح في هذه المسألة:

هو أن النهي كان أول الأمر ثم حصل الأذن بعد ذلك فأخبار أبي هريرة بأن عبدالله بن عمرو كان يكتب وأنه لم يكن يكتب دليل على أن عبدالله كان يكتب بعد إسلام أبي هريرة رضي الله عنه، ومعلوم أن أبا هريرة تأخر في إسلامه، فأبو هريرة رضي الله عنه أسلم في السنة السابعة للهجرة.

فالمفهوم من هذا: أن الرسول عليه الصلاة والسلام أمر وحرص على حفظ سنته بطريق واحد وهي طريقة الحفظ دون الكتابة خوفاً على القرآن من الخلط فيه وبالتالي لا تسقط حجية السنة بهذا التصور[1].

الشبهة الثالثة:

ملخص هذه الشبهة:

يدعي المستشرقون أن حملة السنة من الصحابة والتابعين كانوا جنوداً عند السلاطين والملوك يضعون لهم الأحاديث لتعضيد ملكهم، إما خوفا منهم ومن بطشهم أو طمعا بمال أو منصب!

---

[1] انظر: الروضة البهية في خدمة السنة النبوية. د. عبدالحكيم الصعيدي. مكتبة الدار العربية. ط١، ٢٠٠٧م ص٩١

ومن الذي طالتهم يد التشويه والتضليل الإمام الزهري، الذي كان يعد من أكبر أئمة الحديث في عصره، وأول من دون السنة من التابعين، لذا زعم المستشرق ((جولد تسهير)) بأن الإمام الزهري كان على علاقة وطيدة مع الأمويين، وأنه في سبيل هذه العلاقة وضع الأحاديث المكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم لتحقيق مصالح الأمويين.

واستشهد على ذلك بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: ((لا تشد الرحال إلى إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا ومسجد الحرام والمسجد الأقصى))[٢]، فقال: أن عبدالملك بن مروان أراد أن يكون للشام مكانة عند العرب المسلمين فمنع الناس من الحج إلى مكة وبنى قبة الصخرة ليحج الناس إليها، ويطوفوا حولها، وذلك أيام المحنة مع عبدالله بن الزبير فزعم هذا المستشرق أن هذا الحديث مكذوب، وما وضعه الزهري إلا لمصلحة، وبذلك يدخل الشك في قلوب الأمة من أحاديث الزهري، وبالتالي يدخل الشك إلى السنة كلها.

الرد على هذه الشبهة:

الرد على هذه الشبهة يكون على محورين:

الأول: عام والثاني خاص، متعلق بالإمام الزهري، أجاب الدكتور مصطفى السباعي على هذه الشبهة في كتابه مكانة السنة في التشريع الإسلامي قائلاً: ((إن أعداء الإسلام من غلاة الشيعة والمستشرقين ودعاة الإلحاد لم يصلوا ولن يصلوا إلى مدى السمو الذي يتصف به رواة السنة من الترفع عن الكذب حتى في حياتهم العادية بل ولن يصل أعداء الإسلام إلى مبلغ الخوف الذي استقر في نفوسهم بجنب الله خشية ورهبة ولا مدى استنكارهم لجريمة الكذب على رسول الله حتى قال منهم من قال: يكفر من يفعل ذلك. وبقتله، وعدم قبوله توبته))[٣]، وهذه أمثلة تبين لك أمانة المحدثين وأنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم وإن كان من أقرب الناس إليهم:

١- تجريحهم لأبائهم:

الإمام علي بن المديني سئل عن أبيه فقال: سلوا عنه غيري فأعادوا السؤال فأطرق رأسه ثم قال: هو الدين إنه ضعيف.

٢- تجريحهم لأبنائهم:

الإمام أبو داود السجتاني ((صاحب السنن)) قال: ابني عبدالله كذاب، وكذلك قال الإمام الذهبي في ولده أبي هريرة: أنه حفظ القرآن، ثم تشاغل عنه حتى نسيه.

٣- تجريحهم لإخوانهم:

زيد بن أبي أنيسه قال: ((لا تأخذوا عن أخي يحيى المذكور بالكذب))[١]

الثاني: في ما يتعلق بالإمام الزهري:

الإجابة عنه في النقاط الآتية:

---

[٢] صحيح البخاري: باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة رقم(١١٣٢)، ج١، ٣٩٨

[٣] منقول عن كتاب: الدكتور رؤف شلبي في السنة الإسلامية بين إثبات الفاهمين ورفض الجاهلين،ص٥٠

[١] انظر: السنة الإسلامية، د. رؤوف شلبي.ص٦٠

١- الإمام الزهري معروف بأمانته وورعه وتقواه، قال عنه الإمام أحمد: الزهري أحسن الناس حديثاً وأجود الناس اسناداً[٢]، وعرفه ابن حبان في الثقات فقال: ((كان أحفظ أهل زمانه، وأحسنهم سياقاً لمتون الأخبار وكان فقيهاً فاضلاً روى عنه الناس))[٣]، وقال عنه الذهبي في السير: ((إمام العلم حافظ زمانه))[٤].

٢- هذا الحديث الذي تزعمون أنه مكذوب من وضع الإمام الزهري إنما هو صحيح مروي في أصح كتب السنة[٥]، وقد روى من طرق مختلفة من غير طريق الزهري[٦].

٣- أن الإمام الزهري ولد سنة ٥٨ للهجرة وعبدالله بن الزبير رضي الله عنه قتل في سنة ٧٣ للهجرة يعني ذلك أن عمر الإمام الزهري كان خمسة عشر عاماً، فهل يتصور أن يأخذ الناس حديثه بالحج إلى قبة الصخرة وهو لم يزل مغموراً غير معروف!!

٤- ثم إن الحديث إنما يشير إلى فضل الصلاة في المسجد الأقصى، وأنه يشرع للمسلم السفر إليه وأنها عبادة وليس فيه أي دلالة على الطواف حول الصخرة ولا حتى على فضلها.

وبذلك يثبت بما لا يدع مجالاً للشك بطلان ما ذهب إليه هذا المستشرق الحاقد، وبهذه الردود أغلقت الأبواب، وكممت الأفواه التي اجترئت على سنة حبيب الله صلى الله عليه وسلم لتبقى سنته منارة وهدى ومصدراً رئيساً للتشريع في الإسلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

الخاتمة

النتائج:

١ -إن السنة النبوية بيان للقرآن، ملازمة له، مفصلة لمجمله، موضحة لمبهمه، فالآخذ بما فيها آخذ بالقرآن.

٢ -اهتم الصحابة بحفظ السنة؛ فحفظوها في صدورهم، وكتبوها بما وصلت إليه أيديهم، وسار على نهجهم التابعون حفظا وكتابة، حتى وصلت إلينا نقية لا تشوبها شائبة.

٣ -أجمعت الأمة منذ عهد الخلفاء الراشدين وإلى يومنا هذا على الأخذ بالسنة وجعلها المصدر الثاني في التشريع بعد كتاب الله تعالى وأنه لا اجتهاد في حكم وردت به السنة.

٤ -التعريف بالإستشراق ونشأته، وأهدافه، وأهم المستشرقين المهتمين بعلوم الحديث الشريف.

٥ -زعم المستشرقين بعدم حجية الحديث الشريف، وعدم الأمر بتدوينه مثل مرتكزا أساسيا للمستشرقين لإثارة الشبه حول الحديث النبوي.

---

[٢] البداية والنهاية ،اسماعيل بن عمر بن كثير،مكتبة المعارف، بيروت ج٩. ص٣٤٠

[٣] الثقات . لأبي حاتم محمد بن حبان. دار الفكر، ط١، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد، ج٥/٣٤٩

[٤] سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي،مؤسسة الرسالة، ط٩. تحقيق:شعيب الأرناؤوط، ج٥. ص٣٢٦

[٥] سبق تخريجه صفحة ٢٩

(٦) هذا الحديث أخرجه الترمذي في سننه ، رقم(٣٢٦) من طريق قزعة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ج١٤٨/٢. وفي المعجم الكبير برقم(٢١٦٠) عن طريق عمر بن عبدالرحمن عن أبي بصرة رضي الله عنه.ج٢٧٧/٢ وفي سنن أحمد بن حنبل برقم(١٠٥١٤) عن طريق أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه.ج٠١/٢ وفي مصنف أبي شيبة برقم(١٥٥٤٨) بطريق مسهر عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه.ج٤١٩/٣

٦ -إن الإستشراق وقواه التي تقف خلفه نجح في تجنيد العديد من أبناء المسلمين ليكونوا شوكة في خاصرة الدين، سواء علموا أم لم يعلموا، وهؤلاء خطرهم على الإسلام أشد من أساتذتهم المستشرقين أنفسهم.

٧ -إن الله تعالى تكفل بحفظ دينه المرتكز على دعامتين كتاب الله وسنة رسوله، فكلاهما من عند الله تعالى.

٨ -إن الله تعالى يقيض في كل زمان من علماء الأمة من يدافع عن سنة الحبيب محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم ويذود عنها ، لتبقى نقية صفية لاتشوبها شائبة.

يوصي البحث:

١ -الإستمرار في طرح هذه المؤتمرات والندوات لما تثريه في خدمة الدين من خلال كشفها للشبه المثارة حوله عامة والحديث خاصة.

٢ -اقامة المناظرات العلمية بين علماء السنة المخلصين وبين تلامذة المستشرقين المفلسين، المتناثرين هنا وهناك في العالم الإسلامي في مؤتمر يدعى له الهيئات والمؤسسات العلمية المتخصصة وجمهور الأمة. لما في المناظرة من فوائد عظيمة.